صورة نابليون بونابرت من الدعاية إلى الأسطورة

(بين فرنسا ومصر)

أ.د.على كورخان

"أيها الجنرال كم أنت كبير مثل هذا العالم"

" كليبر"

حرص نابليون بونابرت منذ بدايته العسكرية على إبراز صورته وتسويقها فى صورة المنتصر، لذا لم يكن يرسل لحكومته فى فرنسا غير أنباء وبلاغات انتصاراته العسكرية . وهو وإن اتسم مسلكه هذا بالصدق إبان حملته الأولى على إيطاليا إلا أنه لم يتم بنفس ودرجة الصدق هذه فى حملته على مصر، إذ أخفى تماما كل إخفاقاته التى أصبحت معروفه بعد ذلك من قبيل فقد أسطوله فى معركة "أبوقير"، والتى انتصر فيها الأسطول الإنجليزى بقيادة الأميرال "نيلسون". وفى هذا السياق يمكننا أن نشير إلى إخفاقات عديدة عمل على إخفائها عن فرنسا فى حينها، وليس بأولها فشل حصاره لعكا، وما أكثر ما أخفاه – إلى حين . وقد يرى البعض معه أنه يمثل فى ذاته نصف الحقيقة؛إذ تختلط أنباء انتصاراته ببعض وقائع فشله، تلك الأخيرة التى كان يعمل على إخفائها ويحجم عن إرسال أخبارها إلى فرنسا، وليس أدل على ذلك من أخبار حملته على مصر، والتى كانت فى بدايتها انتصار ما أسرع ما أذيعت أنباؤه فى فرنسا، إلا أن الدائرة عندما دارت عليه بعد ذلك، وآلت إلى خسائر بالغة، فقد آثر حجبها لتكون بلاغات الانتصار وبيارق فتوحاته هى الحقائق التى تسمعها آذان الجماهير فى فرنسا، لتغيم فى سماء الوقائع أى ملامح للهزيمة، حتى إن بونابرت عندما عاد متسللا إلى فرنسا، رحب به الفرنسيون كبطل منتصر مزهو بفتوحاته،

الأمر الذى نراه نموذجا مبكرا لتدشين البروباجندا الحديثة، والتى تخفت معها ـ إن لم تحقق – أنباء الهزائم، لتعلوا أبواق الانتصارات بصخب إيقاعاتها التى تصم الآذان .

أسطورة نابليون وفرنسا

لم يكن هذا النهج هو السبيل الوحيد لدى نابليون بونابرت فى صنع أساطير الانتصار لدى أبناء بلدته فى فرنسا، إذ يعتمد على لعبة الإخفاء -لإظهار قيم البروباجندا؛ فقد نزع إلى نسق آخر لبناء أسطورة تفصل شخصيته كمواطن فرنسى، وهو النسق الذى اشتقه لنفسه منذ مطلع حياته العسكرية وتأسس على مقومات متعددة، وقد كان من أهمها ما رسخه فى أذهان الجميع من أن هناك شعارا غاليا لبلوغ المكانة العالية والتميز الذى لا يقف عند حد، بفضل الكفاءة الذاتية وحدها، والقدرة الفردية التى تستند لغير مقوماتها ومواهبها بعيدا عن دور الطبقة بامتيازاتها لبلوغ هذه المكانة، وهو الواقع الذى كان شائعا فى حينها. وهكذا كان نابليون بونابرت مثالا بارزا لإلغاء الامتيازات التى أرادت الثورة الفرنسية إلغاءها

لقد حقق نابليون بونابرت بشخصيته ما يمكن أن نعتبره مثالا حيا. لعبارة "نيتشة" : " إذا أردت أن تحصل من الحياة على خير مافيها فعش فى خطر"، فقد كان تجسيدا جليا لإرادة القوة وهو القائل: "إن كلمة المستحيل لا وجود لها فى مفردات اللغة الفرنسية" وبهذه الإرادة، بجانب قدراته التى لايمكن إغفالها، انطلقت الأسطورة التى نسجت بعض خيوطها على نول البروباجندا – كما سنرى ـ لينطلق نابليون عاصفة لاتعرف المستحيل، ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما يحدثنا تاريخه عنه، من إنه بعد أن تحالفت عليه أوروبا عسكريا لاثنتى عشرة مرة، وبعد هزائمه المتتالية فى أسبانيا والتى ترتب عليها عزله للمرة الأولى فى جزيرة ألبا الفرنسية القريبة من إيطاليا، وكنتيجة للمقومات الكارزماتية فى شخصيته فإن هذا العزل لم يتم له باعتباره سجينا، وإنما بعزله إلى هذه الجزيرة باعتباره إمبراطورا لها، ويالها من مفارقة !! ـ لكن "نابليون" أكثر من ذلك كله وهو ماقد يلقى بعض ضوء على

مقومات – ناغمت البروباجندا – صنعت وروجت للأسطورة، فها هو ذا إذ يضيق ذرعا بهذا المنفى، لا يخيب الرجاء لمروجى أسطورته فى ضوء القطرة الكارزماتية لصورته؛ فيهرب من الجزيرة مع مجموعة صغيرة من حرسه الخاص، ليصل بهم إلى ميناء فيرجيس بفرنسا ليبدأ من هناك زحفه إلى العاصمة باريس بعد أن ضم لصفوفه كل تلك الجيوش التى أرسلها الملك لويس الثامن عشر لمواجهته. لقد كان يمكن "لنابليون" فى حينها أن يقف فى مواجهة الجموع فاتحا صدره، مجلجلا بصوته "هذا هو قائدكم. أطلقوا على صدره نيرانكم"، وعندها كان الجنود القادمون، يخرون باكين، ويحملونه على الأعناق ليتقدم بهم لمواجهة فيلق آخر ليعاود الموقف، وتنضم إليه الجيوش تلو الجيوش، وتبعته بلاغاته إلى الفيالق الأخرى التى سيتجه إليها لتخبرهم بأن النسر يحلق طائرا من مدينة إلى أخرى ليستقر بعشه فى باريس، الأمر الذى كان يبعث الحمية فى قلوب الجنود بقدر ما كان بعثا لأسطورة "نابليون" باعتباره نسرا محلقا كقياصرة روما القديمة فى مجدها التليد .

ها هو نابليون النسر، الأسطورة يجلس على عرش فرنسا مرة أخرى، لكن النسر المحلق يخيف أوروبا كلها، وبخاصة بعدما تواترت أنباء انتصاراته على لويس الثامن عشر دون طلقة نار واحدة بفضل انطلاقه غير العابئ بالخطر، ومن ثم بفضل تلك الجرأة التى لم تتوقعها أوروبا . وهو ما دعا أوروبا بأكملها للتحالف ضده مرة أخرى لتواجهه فى معركة واترلو لتكون هزيمة أخيرة له، إذ تعلموا من ماضى النسر ألا يبوئونه أى مكانة، فاعتبروه سجينا بعد عزله فى جزيرة سانت هيلانه، وأحاطوا به حشدا من الجنود، بلغ قرابة الالفين خشية تحليق جديد، ليكون هذا المنفى مثواه الأخير، إلا أن قادة جيشه قبل جنوده، وجنوده مع خصومه لم يكفوا عن نسج الحكايات والقصص حول عبقريته وشجاعته. وهكذا انتصرت الأسطورة وإن حبس النسر فى قفص جزيرة سانت هيلانه، إلا أن رياح الأسطورة كانت قد هبت؛ لتنطلق مدوية لتتملى بها عيون وأسماع الجماهير فى مختلف العصور، وليتردد على مسامع الزمن أسطورة النسر المحلق فى أشكال شتى من الآدب والأغانى الشعبية واللوحات الفنية كما سنرى بعد حين، وذلك كله رغم ما حاوله "الملكيون" إذ

أرادوا أن ينسجوا أسطورة مناهضة سوداء فى مواجهة هذا التيار الجارف، وذلك فى صور متعددة من قبيل ماكتبه "شـاتوبريان" فى كتابه المعنون "عن بونابرت" والذى أراد أن يبرز فيه الأصل الكورسيكى لنابليون، وهو ما يعنى أن "نابليون بونابرت" ليس نابعا من أرومة فرنسية، بل هو من أصل أجنبى، وبالمثل كان هناك آخرون قد مثلوه "بجنكيز خان" أو أتيلا"[1] رافضين أن يمثلوه "بيوليوس قيصر" أو "الإسكندر المقدونى"، مبرزين دوما عدد ضحاياه ومآسى حروبه، وماسببته تلك الحروب من نزيف لتعداد مواطنى فرنسا الذين ماتوا إبان معاركه وحملاته .

ولم يكتف هؤلاء بهذا كله، ذلك أنهم أخذوا يطنطنون باستبداد "نابليون" وإطلاق عديد من الدعاوى التى تخفى هى الأخرى نصف الحقيقة؛ إذ يزعمون أن كل ما آلت إليه فرنسا إنما هو من مغبة أفعال نابليون، ناسين عديدا من وقائع أخرى تقف فى صفه، مُغمضين عيونهم عنها من قبيل ما يعرفونه جيدا من أن أوروبا هى التى أعلنت الحرب على "نابليون"؛ فى محاولة لهدم أسطورته التى بدأت تنذرهم بالخطر ، ومن قبل ومن بعد، فقد تناسى هؤلاء أن فرنسا فى حينها كانت محتاجه إلى رجل قوى، هو على حد قول المؤرخ " سييس " "كانت فرنسا فى حاجة إلى سيف" كما أن التاريخ لايمكن أن ينسى لنابليون إنه واضع كافة النظم الإدارية والقانونية القائمة بفرنسا حتى اليوم .

ومع التسليم بأن أولئك المناهضين لأسطورة نابليون "النسر المحلق" بما حاولوه فى كتاباتهم السوداء قد استخدموا هم الآخرون تلك الدعاوى التى تقوم على لعبة "الإخفاء – الإظهار" التى ابتدعها نابليون" كبروباجندا دعائية لبث أسطورته، على أنه فى نهاية المطاف وقبل أن تمضى أعوام قليلة ذرت رياح أسطورة النسر المحلق دعاواهم، ذلك أن عديدا من ضباطه عندما عزل "نابليون" فى سانت هيلانه كتبوا مذكراتهم التى تفيض إعجابا وتقديرا لعبقريته، كما أن "نابليون" نفسه إبان سجنه فى جزيرة سانت هيلانه فى جنوب المحيط الأطلنطى، وبالرغم من الظروف المناخية الصعبة التى يعرفها كل دارس لهذه الجزيرة، وذلك كله بجانب المضايقات المستمرة

التى كان يكيلها "لنابليون" حاكم الجزيرة البريطانى " هاتسون لو "، فإن هذه الظروف كلها لم تمنع ذلك النسر الذى يتحدى الآفاق الصعبة من إملاء مذكراته التى أسماها بنفسه " النصب التذكارى لسانت هيلانه[2] " والتى كان يحس معها بقرب نهايته، فأراد أن تكون هذه المذكرات وصية أخيرة له، لذا لم يكتبها لابنه أو حتى لأقاربه، ولكنه كتبها إلى الشعب الفرنسى كله، لتنشر بعد عامين فحسب من وفاته[3] فتصبح بذاتها صفحة فخار أخرى مدوية لأسطورته كما حققت أعلى مبيع لكتاب فى حينها، ومن بين أسطرها ينشر عطر روح رومانسية حلق بها النسر إلى آفاق أدبية لا تقل نجاحاتها عن نجاح أسطورة "نابليون" العسكرية؛ ليصبح النسر صورة مثالية للبطل التاريخى الذى انطلق الأدباء والفنانون فى مجالات عدة يرسخون أحرف هذه الأسطورة، كل فى ميدانه، وما أكثر تلك الميادين التى تحققت فيها تلك اللوحة الأسطورية التى بقيت تتيه بنسرها فى فضاءات عدة أحسب أن التداعيات تلزمنا بأن نشير إلى طرف منها .

فضاءات عديدة للأسطورة :

أ - نجد أن الأغنية تلعب دورا رئيسيا فى كل العصور فى نشر الأسطورة وقد انطلقت الأغانى التى تمجد نابليون لتحقق له مجدا تنشر أجنحة ضاربة للنسر المحلق مما يحيى ذكراه حتى من قبل وفاته وإبان منفاه تعبيرا عن ارتباط وجدانى، وها هو الشاعر "بيير جان دى برانجيه"[4] عام 1820 قبيل عام واحد من وفاة "نابليون" يكتب قصيدته "ذكريات الشعب" والتى يقول فيها "سنتحدث عن مجده (أى نابليون) لدى الفقراء فى بيوتهم، هناك حيث لا حديث لأسر الفقراء عن أحد غيره (...)، ومع أن البعض يزعم أنه قد أساء إلينا لكن الشعب لا يزل يمجده، نعم يمجده فلتتحدثى عنه ياجدتى .. أيا جدتى تحدثى عنه" .

فى مجال الآداب (الشعر والقصة والمسرح)

لقد أشاد التيار الرومانسى بعظمة نابليون وتوحد بأسطورته حتى فيكتور هيجو

عندما أمر لويس الثامن عشر – بعد عودته ملكا – أن يزيل تمثالا لنابليون كان قد نصب فى ميدان فاندوم لم يستطع هيجو إلا أن يسكب مع دمعه قصيدته الشهيرة "عمود ميدان فاندوم" وها هو الشاعر فينى هو الآخر يكتب قائلا "إننى من ذلك الجيل الذى نشأ فى رحاب انتصارات "نابليون"... ويالالأسى، فها هو السيف الذى امتشق خارج عمده، يعود ثانيه لمثوى جرابه مع عودة الملكية " .

وما أكثر ماتغنى الشعراء الرومانسيون "بنابليون"، وهو الأمر الذى لم يفت كتّاب القصة، فها هو "استندال" – على سبيل المثال – وقد كان موظفا فى جيوش نابليون، لكن شاء قدره أن يختاروه معلما للغة الفرنسية لأوجنيى فى طفولتها المتقدمة، وها هو الأديب اللامع يلقى على مسامعها شهادته التى ضمنها كتابه عن معركة واتر لو . ويكتب "إدموند روستان Edmond Rostand " فى العام 1912 مسرحيته الشهيرة "النسر الصغير" وهو الدور الذى حقق شهرة الفنانة العظيمة سارة برنار عندما أدت برائع أدائها تلك الأشعار التى تتغنى بانتصارات "نابليون" فى هذه المسرحية(5).

ولما كان الأمر لا يقف عند حد فيما يتصل بالأعمال الأدبية على اختلاف فنونها والتى اهتمت بهذه الصورة الأسطورية لنابليون، فيكفينا – فى ظنى – أن أشير إلى ماجمعه بول نواروه (Noirot Paul) بين طيات كتابه عن"نابليون بونابرت: كيف انتشى به الأدب فى العالم" إذ عرض لحشد من الشعراء والأدباء عبر العصور من القرن التاسع عشر، وبذلك ضمنه عشرات الأسماء اللامعة فى تاريخ الأدب بفنونه المختلفة، وكان من بينهم أراجون وبلزاك، وبر وست، وجوته، وكلفينو، ونيتشه، ومالا بارت، بل وشارل ديجول، وما أكثرمن كتب نوروه عنهم، وما أكثر من أغفلهم أيضا وتعج بهم المراجع مما لايمكن إغفاله من قبيل "ماكس جالو" الذى كتب أربعة أجزاء عن أربع حقب فى حياة نابليون وهى : أغنية الذهاب 1769 – 1799، شمس اوسترليتز 1799 – 1805، إمبراطور الملوك 1806 – 1812. وأخيرا من لم يمت فى سانت هيلانه 1812 – 1821. وها هو باتريك رامبو يكتب ثلاثيته عن

نهاية الإمبراطورية تحت عنوان: المعركة، الثلج المتساقط والغائب، ولاتكف الكتابات حتى زماننا هذا، فهاهو "دومينيك دوفيلبان" وزير خارجية فرنسا المعاصر، والذى يعيش حالة ولع بشخصية "نابليون" يكتب مؤلفة الشهير "عودة نابليون، أو روح القضية"، ويالها من روح لأسطورة أبدا لا تموت .

ج – فى مجال الموسيقى :

ماكان للموسيقى أن يتخلف إيقاعها أو ركبها عن مواكبة هذا الولع بأسطورة "نابليون"، مما أسهم بدور لها فى نشر هذه الأسطورة. وفى هذا السياق ـ ورغم ماقد يرى فيه البعض تناقضا مع ما نقول – فإن الأذن تعشق قبل العين أحيانا كما يقولون، وهل يمكن أن ننسى السيموفونية الرابعة لبيتهوفن، والتى أراد بها تخليد اسم "نابليون"، لكنه ما إن تناهى إلى مسامعه بأن "نابليون" قد توج نفسه إمبراطورا، حتى ضاق ذرعا بالاسم الذى أراد تخليده بمؤلفه السيمفونى، وإن لم يغير حرفا من مبناه. وهو أمر رأى فيه البعض مزيدا من اهتمام الجمهور بالعمل السيمفونى الذى ما إن يعزف حتى يتوحد الجمهور بقمم النغم التى تناغم سموق الأسطورة .

وفى هذا السياق نستطيع أن نشير إلى واحدة من روائع تشايكوفسكى ونعنى بها افتتاحية 1812 والتى أرادها تخليدا لذكرى انتصار الروس على "نابليون" – واندحار المارسيز – فى الحملة على روسيا، لكنها من زاوية أخرى قد تمثل تداعيات لدى من يسمعها عن هذا البطل الأسطورى الذى لم تتوقف معاركه إلا بعد تحالف أوروبا كلها ضده فى واترلو. وهكذا خلدت الموسيقى دورا "لنابليون" لتتضامن مع الغناء والأدب واللوحة، تلك الأخيرة التى انطلقت فى بعضها من تهويمات البروباجنده، لكنها دوما خلدت الأسطورة فى لوحات أبدعها كبار الفنانين.

د – اللوحات :

ها هو مجال آخر يصعب تعداد أعماله، ذلك أن كل معركة لنابليون خلدتها العديد من اللوحات، وما أكثر معاركه التى أبدعتها أنامل الفنانين ويوجد جلها فى متحفى اللوفر وفرساى . وتجدر الإشارة بنا هنا إلى أن اللوحات الفنية كانت نسقا مألوفا لتخليد انتصارات الملوك فى معاركهم، وهو أمر مضى "نابليون" على منواله . كى يحقق لنفسه خلودا أسطوريا بالقدر الذى كانت تضفيه عليه بعض اللوحات من خوارق فى بعضها، وذلك من قبيل تلك اللوحة التى رسمها "انطوان جون جرو"[6] عام 1804 تحت عنوان: " بونابرت يزور مرضى الطاعون فى يافا "

والفنان يصور نابليون فى هذه اللوحة وهو بين مرضى الطاعون الذين يخشونهم من هم حوله من الأتباع . لكن "نابليون" لا يعبأ بالطاعون فهاهو يلمس مريضا، وهو مالا يشير إلى شجاعة "نابليون" فحسب، بل يعنى فى وجه من معانيه التى قصدها الفنان – الإشارة لدور أسطورى كان ينسب للملوك عندما يشفى المرضى بلمسهم .

ولقد كان من الطبيعى أن تحظى معارك نابليون فى مصر بالعديد من اللوحات التى قصد فنانوها أن تتجاوز الواقع، لترسم أسطورة تنطلق من بين طيات البروباجندا التى تظهر الانتصارات وتسجل ما تواتر من أخبارها، بقدر ما تخفى العثرات وتطمس معالمها، وهو ما سبق وأشرنا إلى تجسده فيما اتصل بحملة "بونابرت" على مصر حيث لعبة الإظهار – الإخفاء . لكن مصر بذاتها كان لها دورها فى نسيج أسطورة نابليون، والتى تجلت آثار لها فى فضاءات عدة هى الأخرى، آن أوان الحديث عنها كى نتناول معالم هذه الأسطورة وبزوغ مصر بين جنباتها .

أسطورة "نابليون ومصر" :

لم تمض سنوات قليلة بعد وفاة "نابليون" حتى أصبحت أسطورته تيارا متدفقا فى شلالات من التمجيد أصبح من العسير أن يحول دون تدفقها أى سد، فانطلقت

فى نهر تعددت روافده، حتى إن بعض عتاة خصومه حاولوا استثمار جنباتها لخدمة مآربهم، وفى هذا السياق يبرز دور حملة "بونابرت" على مصر، فهى وإن انتهت بهزيمته وإجهاض حلمه، إلا أن دور البعثة العلمية بها وإصدار كتاب " وصف مصر " قد ساعد على سطوع دور شق رافدا آخر للأسطورة، وفتح صفحة ناصعة عن رسالة فرنسا الحضارية وهو ما استغله "لويس فيليب" لتبرير أطماع فرنسا الاستعمارية فى شمال إفريقيا والشرق الأقصى، وهو ما دفعه أيضا لإعادة نشر كتاب وصف مصر ليتيه بأثر من آثار الحملة الفرنسية على مصر، مبرزا من جديد بهذا الرافد عن أسطورة نابليون كعلم من أعلام التنوير. وذلك كله رغم ما يمكن أن يكون "لويس فيليب" قد حمله فى قلبه من كراهية "لنابليون"، لكنها الضرورة المطلقة فى المضى بالأسطورة التى تستفيد من البروباجنده لتنطلق بها إلى الآفاق التى تستثمرها فيها، وهكذا لم يكتف "لويس فيليب" بإنشاء قوس النصر فى أهم الميادين بقلب باريس، بل لقد أنشا فى قصر فرساى رواقا للمعارك الفرنسية الشهيرة، وكان من الطبيعى أن تتضمن معارك "نابليون"، ومن بعضها بطبيعة الحال، معاركه فى مصر –والتى سنعود إليها فى موضعها – خاصة وقد مثلت بذاتها حجر الزاوية فى صنع أسطورة "نابليون". تلك الأسطورة التى أصبحت نموذجا يتوحد به الجميع فى عديد من مظاهرها. وما أكثر الوقائع التى يمكن ذكرها وتغص بها المراجع. ومن بينها ما فعله "نابليون الثالث" (ابن شقيق نابليون، والذى أسس الإمبراطورية الثانية) عندما أرسل مع حملته على لبنان حشودا من العلماء، ليكسب الحملة الاستعمارية طابعا تنويريا، وإن لم يكن ذلك غير مسايرة لما فعله عمه "نابليون بونابرت" فى حملته على مصر، والتى أججت ذلك الولع بمصر، والذى تلزمنا الأمانة العلمية إلى أن نشير بأن عديدا من مقومات هذا الولع كان له وجوده بين الفرنسيين من قبل "نابليون"، وبخاصة لدى النخبة من الأمراء والبرجوازيين، وهو مانجد أثرا له فى بعض ديكورات قصر "ماليزون" وأثاثه، حيث مقابض الكراسى التى تمثل الآلهة المصرية الفرعونية، كما أن العديد من أياديها قد صمم على

هيئة أبى الهول، بجانب شيوع عديد من المظاهر الفرعونية من قبيل غطاء الرأس الفرعونى[7] وغيرها من مظاهر تعددت مناحيها فى إطار هذا الولع الذى تجسد فى عهد لويس السادس عشر، وإن ازداد الشغف به كأثر من آثار الحملة النابليونية على مصر، وما صاحبها من بروباجنده أسهمت فى ترصيع أسطورة "نابليون" وتجلت هى الأخرى فى فضاءات عدة فى مجال الأغنية والأدب والفن بعامة .

وها نحن نتناول بعضا من ملامح هذه الفضاءات :

فى مجال الأغنية :

لقد ألف المغنيون الشعبيون كثيرا من الأغانى التى خلدت أسطورة "نابليون" وتداعت معها الذكريات حول مصر التى حركت الوجدان الفرنسى وزكت تلك الروح التى عشقت "نابليون" إذ انطلق بجيوش فرنسا لتطاول الأهرامات، ونحسب أن الأغنية التى ألفها الشاعر "اميل دوبرو"[8] عام 1819 – و"نابليون" فى حينها يعانى سكرات المنفى – لقد كان الوجدان الشعبى الذى ارتبط بولعه بمصر ينشد مع "إميل دوبر" ومن تلحين الموسيقار "جوزيف دينى دوس" أغنيته التى عنونها تحت اسم "جندى عجوز" يقول فيها، "هلا تذكرت الأهرامات .. عندما حفر كل منا اسمه هناك" وياله من دور يضع يدنا على ملمح متعدد الأوجه ولايمكن إغفاله، فمن ناحية يمثل عام 1819 من زاوية رؤية للواقع المعيش اندحارا "لنابليون"، لكن أسطورة النسر المحلق نابليون من ناحية أخرى، وقد غزاها الوجدان الذى عاش ما صنعه نابليون سلفا من بروباجنده حول مصر وانتصاراته فيها، ها هو يعاوده الحنين إلى ذكرياته لينطلق مغنيا، ومعزيا نفسه، ومترنما بأمس لما يزل يحياه، بقدر ما فيه من تمجيد خفى لنابليون قائد هذه الحملة وأسطورة فرنسا التى لا يخفت وهجها ما حل بصاحبها .

فى مجال الأدب والفن :

ما كان لمصر ودورها فى صنع أسطورة نابليون أن يغيب عن مجالى الأدب والفن، وها هو "أوجست بلوتييه دى شامبير"[9] يكتب كتابا عن "نابليون" ومعاصريه،

وهو الكتاب الذى رصعته رسوم الفنان "آريه شيفر" بصور الحملة الفرنسية على مصر، وفى واحده منها يبين الجنرال "كليبر" وهو يقول "لنابليون" بعد انتصاره فى معركة الأهرام :

" (أيها الجنرال) كم أنت كبير، مثل هذا العالم ".

ولقد استعار نفس هذه العبارة كاتب آخر هو "مادو" فى كتابه "نابليون" لكنه لم يقف عند هذه العبارة فحسب، بل لقد استعار مجموعة من تلك الصور التى تمثل انتصارات نابليون فى معاركه المختلفة، ومن بينها لوحات انتصاراته فى مصر (!!) .

وفى هذا المقام – ومع تعدد المصادر التى تشير إلى دور لمصر فى تجسيد الأسطورة، لا يمكننا أن نغفل كتاب "نابليون فى مصر[10]" والذى ألفه كل من "بارتليمى" و"ميرى" بعد سنوات ست من وفاة نابليون (1827) وقد أهدياه "لابن نابليون"، وكانا قد صاغاه شعرا "ليزينه رافيت"[11] و"بلانجيه"[12] بصور وزخارف متعددة منها تلك الصورة التى وضعت على رأس فصول الكتاب واستعارتها مع غيرها مما رصع به الكتاب عديد من الكتب الأخرى، وكانت أبرزها تلك التى صورت احتلال مصر على يد "نابليون" وكأنه امتداد لاستيلاء الإمبراطورية الرومانية على مصر؛ حيث تبدأ الصورة باسم دقلانيوس[13] إلى اليسار وفى اليمين "بونابرت" وبعدها "مصر محتلة" وفى اليمين اسم "بونابرت" وتحته : الجمهورية الفرنسية.

وهو مايشى بملمح للطابع الذى آلت إليه أسطورة نابليون . وتجدر الإشارة بنا هنا إلى أن عديدا من تلك الصور التى زينت كتاب "بارتليمى" و"ميرى" وأبدعها "رافيت وبلانجيه" قد اتصلت بحملة "نابليون" وقواته على مصر، تلك الحملة التى استثمرها الفنانون فى مجالات أخرى، ومن بينها صورة نابليون فى البحر.

وبالمثل تلك الصورة التى خلدت جنديا فى حملة "نابليون" يضع علم فرنسا فوق ماتصوره الفنان هرم خوفو .

فنون الصناعات :

عندما كلف "نابليون بونابرت" مصانع سيفر بتنفيذ أطقم من الأطباق والفناجين يسجل عليها تلك الرسوم التى جاءت فى كتاب وصف مصر، لم تتوان "سيفر" عن تنفيذ ماطلبه بونابرت وأبدعه الفنان "فيفان دينو" بين عامى 1805-1807 وإن أسموها "الكباريه المصرى[14]"

ويالها من تسمية! وإن دلل نابليون بذلك على اتساع الرقعة والمجالات التى رفرفت عليها بيارق دعاياته؛ ليكون هذا المجال رافدا آخر من الروافد التى ستعاود جريانها إلى نهر أسطورته، ومأأكثر ما سنراه بعد ذلك تخليدا له وللأساطير التى نسجها حول نفسه، فها هو رسم "لنابليون" فى البحر والمأخوذ عن كتاب "بارتليمى" "وميرى" يستثمر هذه المرة فى ترصيع طاقم أطباق.

وهاهى رسوم أخرى له تنفذ على علب مختلفة من العاج والعظام وفى غطاء إحداهما ما يمثل ورقة يانصيب، وقد ظللتها صور الأهرامات الثلاثة (مقلوبة ومتداولة)، كما وضعت صوراً لنابليون لترصع أطقم الأطباق، وفى بعضها نرى "نابليون" يمتطى حصانه والأهرامات من خلفه.

وفى أخرى نراه يركب جملا.

وإن لم يخل بعضها الآخر من صورة لجنوده الفرنسيين يركبون جمالا هم الآخرون .

وأكثر من ذلك كله ما استحدث من ألعاب مختلفة رسم عليها مناظر عديدة عن الحملة الفرنسية على مصر، ونحسبها بكلها تخليدا لأسطورة غاب عنها ما لا يحبه نابليون مما ألم به بمصر، بقدر ما أظهرت مشاهد لا حصر لها تصف وتمجد، بل وتغالى بعضها فى التصوير الأمر الذى يشى بما آلت إليه أسطورة "نابليون" . وأحسب أن من أوضح الدلائل على هذا الاتجاه ما يبرزه الفن التشكيلى فى مجال رسم اللوحات .

الرسم (اللوحات) :

لقد قام العديد من الفنانين بتخليد أسطورة "نابليون" فى لوحاتهم كما سبق وأشرنا، بقدر ماكان مجال الرسم كواحد من الفنون التشكيلية من أبرز معالم هذا الخلود بما تضمنه من مبالغات فى بعضها هى بذاتها دليل على عظم الأسطورة وكان طبيعيا أن يكون "لنابليون" فى مصر حشد منها، وإن كنا سنكتفى ببعضها، وهنا تبرز لوحة الفنان "ليون كوانييه"[15] التى أسماها "الحملة الفرنسية تحت قيادة بونابرت"، وفيها يظهر "نابليون" باعتباره رئيســـا لبعثة علمية وليس مجرد قائد عســكرى غاز لمصر، وهاهو فى الصورة يخرج المومــياء، ليتأكد هذا المغزى الذى قصده "كوانييه".

فإذا ما انتقلنا لرسم آخر للفنان هنرى ليفى والذى جاء تحت عنوان: "بونابرت فى الأزهر" ها نحن نرى نابليون يمتطى صهوة حصانه أعلى مدخل الأزهر والنور يقمر المنطقة التى يقف فيها لتختلف درجة الإضاءة فى خفوتها، حيث القتلى والجماهير الخائفة بصحن الأزهر، ونحسب أن إضاءة اللوحة على هذا النحو فى المقابلة بين وضاءة وقوة النور فى المنطقة التى يقف فيها "بونابرت" بحصانه فى مقابلة مع خفوت الضوء فى المناطق الأخرى، مما يشير فى وجه منه إلى انتصار النور على الظلام وهو ما قد يعكس "نورعصر التنوير " فى مواجهة الجهل !! .

وما أكثر اللوحات التى تخلد "نابليون" فى معاركه فى مصر سواء فى ذلك لوحة "أبوقير" والتى رسمها الفنان الكبير "أنطوان جون جرو" وقد بلغ طولها 968سـم، بقدر ماكان عرضها 578 سم، وفيها كما هو واضح من الصورة نسق "لميرا" على صهوة حصانه وهو يعمل سيفه فى رقاب المصريين والمماليك، وهم بين مقهور وغاضب ومستسلم وقتيل.

ومن أعمال "جرو" الأخرى لوحة شبيهة باللوحة السابقة وإن أظهرت نابليون وهو يتقدم جنوده؛ إذ يحشدهم لمعركة الأهرامات، مخاطبا إياهم بعبارته: "أيها الجنود إن أربعين قرنا من الزمان تنظر إليكم من فوق الأهرامات".

ولم يكن "أنطوان جون جرو"[16] هو الوحيد الذى خلد نابليون فى مصر، فهاهو "لويس فرنسوا لوجين" يرسم هو الآخر لوحة لمعركة الأهرامات وتبدو الأهرامات فى خلفيتها البعيدة فى إطارها الواقعى، ونحسب أن ظهور الأهرامات فى اللوحة إنما هى واحدة من نسيج البروباجندة التى أرادها "نابليون" لمعرفته بالولع الفرنسى بمصر، ولما كانت الأهرامات إحدى رموزها، فما أيسر ما تجتذبه اللوحة للعيون الشغوفة بها، مما يسهم فى دعم أسطورة الفاتح، وبخاصة أن هذه اللوحة مأخوذة من كتاب وصف مصر لتزرع فى عقل المشاهد مع عينه ذلك المعنى العلمى التنويرى للحملة ولدور نابليون[17].

وبقدر ماكانت الأهرامات فى لوحة "لويس فرنسوا لوجين" صغيرة فى الخلفية، كتعبير واقعى كما سبق، وأشرنا إلا أن هناك لوحة أخرى "لفرنسوا لويس جوزيف فانتو"[18] صور فيها هو الآخر لوحة لمعركة الأهرامات وفيها إحدى الأهرامات الثلاثة بحجم كبير فى خلفية المعركة؛ مما قد يؤكد ما نشير إليه من استثمار ولع الفرنسين بمصر فى الترويج لأسطورة "نابليون".

وما أكثر اللوحات التى رسمها كبار الفنانين "لنابليون" فى معاركه فى مصر، مابين "أبى قير" والأهرامات[19] وهليوبولس وكلها تصب فى نهر الأسطورة التى أرادها "نابليون" انتصارا لغزوه لمصر، وتؤكد معنى الانتصار فى حملة كانت نهايتها الهروب تحت جنح الليل والعودة السريعة إلى فرنسا ومعها كان فقد ودمار الأسطول الفرنسى فى معركة "أبى قير" على يد "نيلسون" كما سبق وأشرنا، لكنها البروباجنده التى صنعت الأسطورة والتى لم يقف أثرها عند حياته بل امتد بطبيعة الحال إلى حقب تالية بعدما خلدتها أنامل رهيفة لفنانين آمنوا بالأسطورة وعملوا على تخليدها، وهو ما لا يمكن أن ننسى معه لوحة الفنان جيروم[20] التى أسماها "أوديب أو الجنرال بونابرت فى مصر"، وفيها يقف نابليون أمام أبى الهول، وكأن الفنان قد تمثل "أوديب" فى الأسطورة الشهيرة التى خلدها "سوفكليس" برائعته "أوديب ملكا " ليضع مكانه "نابليون" الذى حل لغز "أبى الهول" فأصبح من حقه أن يدخل مصر (طيبة) فاتحا.

وياله من تعانق بين أسطورتين خلد الأدب أولاها؛ كى تتعدد مصادر خلود الثانية، ونعنى بها أسطورة "نابليون"، وما أكثر الميادين التى خلدت فيها أسطورته والتى تجاوزت كل حد، حتى إنها امتدت إلى مجال الألعاب الفكاهية، وهو ماتذكرنا به تداعياتنا مع أسطورة "أوديب" و"لوحة جيروم"، ذلك أن هناك رسما فكاهيا، تضمن حلا للغز تبرزه الصور؛ إذ يتضمن الرسم أنثى خنزيرLaie، وضرع جاموس Pis، وفأراً Rat ، وحرف "مى " Mi فى السلم الموسيقى ومن بعدها des كما فى الرسم.

والناظر لهذه الصورة يستطيع عبر الأحرف الأولى فى كل رسم منها أن يحل أحجيتها (لغزها) والذى يكون كلمة الأهرامات .

ونحسبه إطارا جديدًا بالنسبة لزمانه كشكل من أشكال البروباجندا إذ تخلد الأحجية استثمار للولع الفرنسى بمصر بقدر ما تدعم رافدا للأسطورة التى تذكر بنابليون كفاتح لمصر وقاهر لأهراماتها وياله من معنى .

لقد استطاع نابليون وعبر وسائط متعددة من البروباجندا مستثمرا فيها حملته على مصر والتى كانت لأنباء انتصاراته فيها دويا ضاعت معه ظلال هزائمه، وقد أحسن نابليون توظيفها فى فضاءات ومجالات عدة كما رأينا، فالأسطورة وقد تجسدت فى الآداب والفنون على اختلاف تنوعاتها، تنطلق بذاتها محلقة بأجنحة عدة لتستقر فى القلوب والعقول الشغوفة بمعانى الانتصار، وصور إرادة القوة وأدوار البطولة التى لا تستند إلا لكفاءتها الذاتية وقدرتها التى تتيه على الآخرين وتحقق أهدافها صامدة فى مواجهة أعتى العواصف . وهكذا أصبح "نابليون بونابرت" نموذجا يحتذى به، لأسطورة كم يتمنى الآخرون أن يتعينوا "Identification" بها وهو ما تجاوز تخوم فرنسا وأوربا إلى مصر، حتى إن الأوساط الدبلوماسية الأوربية بها أبان حكم محمد على باشا لمصر أطلقت على محمد على "نابليون الشرق". وها هو الإعجاب يصل بالنموذج النابليونى إلى الحد الذى أدى بتيير (رجل السياسة والمؤرخ) عندما وصل لمنصب الحكومة الفرنسية عام 1839، إلى أن يعلن تأييده

الكامل لمحمد على باشا (وإلى مصر) متحديا كل ضغوط الدول الأوربية، وما ذلك إلا لأنه رأى فى محمد على محققا لحلم نابليون فى مصر.

* * *

وهكذا تمضى الأسطورة فى تحليقها إلى آماد لاتحد فقد حرص نابليون بونابرت منذ بدايته العسكرية على إبراز صورته وتسويقها فى صورة المنتصر ليسجل اسمه لا فى تراث الملكية الفرنسية فحسب، بل فى تراث الإنسانية كلها، فى نهج ابتدع الجديد لبعث أسطورته مستخدما عديدا من وسائط البروباجنده لدعم هذه الأسطورة. فإذا ما كان ملوك فرنسا وبخاصة لويس الرابع عشر قد دأبوا على تسجيل انتصاراتهم العسكرية فى لوحات تزين قصورهم، فإن "نابليون" وإن سار على منوالهم، إلا أنه أضاف عديداً من الفنون والفضاءات التى تخلد ذكراه، وتجعل من صاحبها أسطورة قامت على تحدى المستحيل، حتى إنه لم يغفل جانبا علميا استثمره من جاءوا بعده ليخفوا عورات أهداف غزواتهم وحروبهم الاستعمارية، ومع أنه لم يختلف عن ملوك فرنسا المستبدين، إلى الحد الذى يرى معه المؤرخ الفرنسى "فرانسو فيريه"[21] أن "نابليون قد حقق الحلم الاستبدادى للويس الرابع عشر" إلا أنه صنع لنفسه فى عيون الفرنسيين – بل ولدى آخرين أسطورة لا تخطئها العين -تضمنت فيما تضمنته- اعتباره الفاتح الذى حمل أفكار الحداثة والتنوير، بقدر ما رأوه مثالا واقعيا لإمكانية بلوغ أعلى درجات السلم الاجتماعى دون قيد غير الكفاءة والمثابرة وإرادة الانتصار على العوائق؛ حتى أصبح "نابليون بونابرت" فى الخيال الفرنسى ابنا بارا لتحقق شعار المساواة فى الثورة الفرنسية، ورسولا للحضارة وباعثها فى بلدان الشرق. وما أكثر مانسج حول شخصيته من معان، تخطب أطر البروباجندا التى وضع بنفسه لبناتها، لتتضافر فى نهاية المطاف فتصنع أسطورته الشهيرة.

VOUS ETES GRAND COMME LE MONDE!

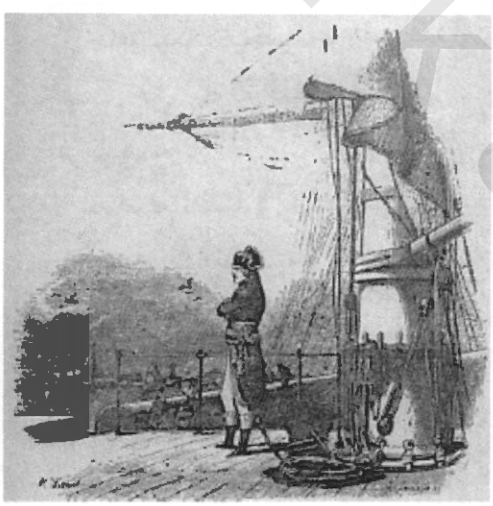

DIOCLETIANVS
SC
AEGYPTO
CAPTA
BONAPARTE
RF

obeikan.com

الهوامش

1 Paul Léautaud, *Passe-temps II, p.339.*

2 *Le mémorial de Sainte-Hélène.*

3 توفى نابليون يوم 5 مايو سنة 1821.

4 Pierre Jean de Béranger (1780-1857).

5 من المعروف أن الدور الرئيسى فى هذه المسرحية وهو دور ابن نابليون منذ قامت الفنانة العظيمة "سارة برنار" بالقيام به وقد أصبح من تقاليد هذه المسرحية أن تقوم أنثى بهذا الدور، وهو ماحدث حتى فى مصر عندما قامت بأداء هذا الدور السيدة / فاطمة رشدى، وزادت شهرتها بعد أدائه .

6 Antoine-Jean Gros, *Bonaparte visite les pestiférés de Jaffa* (1804).

صورة زيتية 523 سم * 715 سم.

7 Némès.

8 Martin Pénet, *Mémoires de la chanson française,* Paris 2001.

9 Laurent-Auguste Pelletier de...) (1789-1832).

حارب فى معظم حملات نابليون ومجد أعماله لوحة هو رأس فرنيه وطاردوه أثناء عودة الملكية ثم عُفىَّ عنه 1820 وعين برتبة رفيعة فى الجيش الفرنسى. انظر إلى الجزء الرابع للموسوعة الفرنسية للقرن التاسع عشر، الجزء العاشر صفحة 397 .

10 Barthélemy et Méry, *Napoléon en Egypte*, Paris 1827, p. XIV.

11 Raffet Auguste (1804-1860). رسام اشتهر برسوماته فى الكتب

12 Bellangé Joseph Louis (1800-1866) رسام للكتب التاريخية تلميذ جرو خصص نفسه فى المشاهد العسكرية.

13 .Dioclétien (245-313) عين كإمبراطور فى 284. اشترك فى أعماله مع مكسميليان ولم تعد روما عاصمة الإمبراطورية الرومانية. قطن دقلانيوس فى الشرق فى مدينة نكوميديا.

14 انظر إلى كتالوج المعرض ملميزون ومصر، 1998 صفحة 86'87

Catalogue de l'exposition *Malmaison et l'Egypte,* 1998, pp. 86-87.

15 15 Léon Cogniet, *L'expédition d'Egypte sous les ordres de Bonaparte (1830-1835), in L'univers des orientalistes,* Paris 2000, p. 109 peinture décorant le plafond de la salle Campan (musée du Louvre).

لوحة تزين سقف صالة كامبان فى متحف اللوفر بباريس.

16 Antoine Jean Gros (1810) *Bonaparte haranguant l'armée avant la bataille des pyramides.* Musée national du château de Versailles, Huile sur toile, 389 x 311 cm.

صورة زيتية 389سم * 311سم.

17 Louis François Lejeune, *Bataille des pyramides* (1806).

لويس فرنسوا لوجون معركة الأهرامات 1806 صورة زيتية 180سم *258سم.

18 François Louis-Joseph Watteai: *La bataille des pyramides* (1806) لوحة زيتية حجمها 1.20*2.90.

19 François LouisJoseph Watteau: *La bataille des pyramides* (1806).

لويس جوزيف فاتو : معركة الأهرامات 1806 صورة زيتية 92سم*120سم.

20 Jean Léon Gérôme, *Oeudipe (1867-1868),* Club des diplomates, Le Caire, d'après la photographie de l'ouvrage de Cristin Peltre, *Les Orientaliste,* Paris, Hazan 2000, p. 25.

جان ليون جيروم : أوديب صورة زيتية 30.2سم *45.6سم نادى الدبلوماسيين بالقاهرة.

21 François Furet. فى مداخلته فى القاهرة سنة 1979.

* * *